آخر ليالي غرناطة

أقصوصة شرقية

بقلم الأديب محمد سعيد عامر

غرناطة إحدى مدن الأندلس الزاهرة ، تقع على نهر شنيل وتحيط بها الغياض ، والمروج الناضرة والبساتين الغناء ، تملؤها الأثمار والأزهار ، وتغرد على أيكها الأطيار . وفى المدينة الزاهرة يقع قصر الحمراء الشهير ، بناه بنو الأحمر من ملوك العرب فى الأندلس ، وتفننوا فى هندسته وتنميقه فجاء آية فى إتقان الصنعة ، وفخامة البناء ، ورحابة الأبهاء ، ولطافة الزخارف والرسوم فكم أدخل فيه من المرمر والمسجد ، وأدق أسباب الزينة والزخرف . وكان من أهم ما يسترعى النظر فيه السوارى والعمد الرقيقة الرشيقة المفرغة فى أحسن القوالب تحمل سقوفاً كأنها سماء زينت بالكواكب

فى قاعة فسيحة من هذا القصر أثثت بأفخر الرياش والأثاث ، وبثت فى جنباتها الأرائك والنمارق جلست عائشة الحرة أم السلطان أبى عبد الله ، وعلى وجهها دلائل المهابة والوقار ، وتجاهها جلست فتاة فى مقتبل العمر غضة الإهاب ناضرة الشباب ، هى ابنتها لمياء . جلستا ساهمتين ، ثم أجالتا النظر فى روضة رسمت على الطنفسة التى فرش بها المكان . وأخيراً قطعت الأم حبل هذا السكوت بقولها :

— علمت يا لمياء ما كان بينك وبين موسى من لقاءات ، ولم أرد من زمن ، أن أخبرك بما عرفت خوف تكدير صفوك والإثقال عليك ، وإن كان هذا الأمر يضطرب فى نفسى وأحب الإفضاء به

— ومن ذا أخبرك بهذا يا أماه ! وما كنت بالفتاة المبتذلة التى تنطلق فى كل طريق وتسير فى كل سبيل ... ؟

وسكتت قليلاً وهى مطرقة ، ثم رفعت رأسها قليلاً وأردفت :

— رأيته لأول مرة بطريق المصادفة حين كنت أسير فى جبال البشرات فقد جمح جوادى وكاد يطرحنى أرضاً ، وكان موسى فى جماعة من صحابه ، فلما شاهد ما بى مرق من بين رفاقه وجرى نحوى حتى قبض على جوادى ثم أبدلنى به غيره وسار فى ركابى حتى بلغ بى مأمنى من أرباض المدينة . وأصدقك القول يا أماه أننى وجدت من شهامة هذا الفارس وحسن أدبه وحيائه فى ذلك اليوم ما حببه إلى قلبى ، وجعلنى أستقصى أخباره وأسأل عن شأنه ؛ وأحمد الله على أن فؤادى ما كذب وما غوى ، فقد علمت أنه من فرساننا المعدودين الذين يعتمد السلطان عليهم ، ويثق بهم ، ولأخى فى موسى — على الخصوص — رأى جميل . ولكن قولى يا أماه ! أتعدون حركاتى وتبثون حولى العيون ؟

— إن عين الأم لا تغفل عن بناتها ، وإنه ليهمنى أن أستقصى أخبار أهلى ، وولدى ، وما تجسست عليك ، ولا جعلت عليك عيوناً ولا أرصاداً فكثيراً ما يأتينى بالأخبار من لم أزود ،

ومهما انطلقت فى أية جهة ، وسرت فى كل سبيل فنحن واثقون بشرفك وكرمك وما يمليه عليك محتدك الأصيل من آداب السير ، وجميل السلوك ، ولكن حديثى يا بنيتى عن موسى هذا فربما عرفته من بين الفرسان الذين يترددون على الحمراء ويقومون بالسفارة بين السلطان وجيراننا الأسبان

— إنه رجل لم يجاوز بعد طور الشباب ، لا بالطويل ولا بالقصير ، ممشوق القوام ، سمح الوجه ، لا تفارق الابتسامة شفتيه ، وهو لين الجانب عذب الحديث لا يشبع سامعه من كلامه الذى يطوى أخبار الناس وحوادث القرون ، ويدل على كثير من المعرفة والاطلاع ، وما أحسن منظره ، وأرق نفسه حين يتحدث عن غزوات ابن أبى عامر المنصور فى بلاد الشمال ، ويصف بألفاظه الرنانة ونغمه الجميل ما صادف أجدادنا من النصر ، وكتب لهم من النجاح وقد رأيته مرة عند وراق فى الربض يشترى بعض كتب ذلك العصر ، ويحدث أصحابه بما فيها . فكان لكلامه فى نفسى أثر باق ، ووقع جميل ...

— أهو محارب أم أديب ؟

— إنه الاثنان يا أماه ، وهو فى الميدانين فارس مغوار ، وبطل لا يشق له غبار . وكثيراً ما يعهد إليه بأعمال السفارة بين السلطان وجيراننا لما عرف عنه من توقد الذهن ، ولطافة المدخل ، ومعرفة آداب المحادثة ، وطرائق السياسة . وكم انتصر فى ميادين الحرب ، وأحرز النجاح فى السلم بحسن لباقته ، ولطافة كلامه . وهو الآن فى سفارة إلى الأسبان واكتشاف لنياتهم وأعمالهم نحونا نرجو أن يعود منها موفور السلامة ، مقروناً بالتوفيق

- إذن هو أهل لبنات السلاطين يا لمياء ، ولقد كانت نفسى تتوق لتزويجك من أحد أشراف بنى نصر حتى تحفظ دماء الملوك لأنجاب نسل نبيل :

— وهل هؤلاء الأشراف دائماً أكفاء لمثلى من بنات الملوك ، وكثيرون منهم يجعلون كل اعتمادهم على دولة دالت ، وعز مضى ، وسمة طيبة لم تكن لهم ولكن كانت لأجدادهم الغر الميامين . وأى رجل من هؤلاء كفء لامرأة كريمة ، وهم كما تعلمين همهم القصف والشرب والغناء والانتقال فى ربوع الأندلس ، وبين أعدائنا الأسبان يبغون بذلك البحث عن اللذة والمتاع . وأنت تعلمين أن منهم من كان عوناً للعدو علينا ، وكان انتسابه إلينا من أعظم البلاء . إننى أفضل العزوبة على الزواج من هؤلاء الأدعياء الذين لا يعرفون الشرف إلا فى التبطل والعيش على حساب الناس . ومهما يكن من الأمر فليس هذا أوان الكلام فى أمر زواجى فنحن فى وقت عصيب قد انكمشت فيه دولتنا ، وضعفت همتنا ، وأحاط بنا الأعداء ، وأصبح واجبنا الأول الدفاع عن وجودنا ، والذود عن حياضنا ، والإبقاء على حياتنا فى أرضنا العزيزة ، ومهدنا المحبوب . ولولا أن القلب لا يني عن الخفوق ، ولولا حكم الشباب الذى يقضى على مثلى بأن تصبو وتحب لما وجدت فى نفسى هما غير هم بلادى ، وموطن آبائى وأجدادى ؛ فقد ضاع اتحادنا وتمزقت كلمتنا فى حين توثقت عروة الأسبان ، وصح عزمهم على أخذ ما بقى لنا من أرضنا ، ولا يلبثون أن يستولوا على غرناطه الأمل الأخير والشاهد الحى على مجد العرب ومدنيتهم الزاهرة فى الأندلس .

وبينما كانتا تأخذان فى هذا الحديث كان الفارس موسى يقطع طريق عودته إلى غرناطة بعد رحلة

طويلة شاقة فى البلاد التى صار أمرها إلى الأسبان. ولما أشرف على غرناطة وشاهد مآذنها وقبابها وحصن الحمراء وقصره الباذخ شعر بحنان غريب ، وشوق عظيم ، وألهبت نفسه الذكرى . وأراد أن يتشاغل بما فى طريقه من المناظر الخلابة ومظاهر الطبيعة الساحرة فى هذه البقعة من جنات الدنيا فسار بإزاء نهر شنيل ذى الماء السلسبيل فأظله ما على جانبيه من الأشجار الباسقة وقد تدلت فروعها فى النهر وطفت فوق سطحه أو غاصت فيه . وفى لجة النهر كانت القوارب ذاهبة آيبة تحمل المسافرين والمتنزهين عرف من بينهم جماعة من الشبان أخذوا يتمازحون فى النهر ، ويتسابقون ! فذكر ما كان يقوم به مع رفاقه من نزهات فى نهر شنيل حيث كانوا يقضون اليوم بالتجديف فى النهر جادين متسابقين حتى إذا بلغوا من ذلك غايتهم أخذوا طريقهم إلى الغياض والحدائق التى تحيط بالنهر فقضوا ردحاً من الزمن فى الأكل والقصف ورواية الشعر ، وقص الأحاديث .

وكان أبلغ هذه الذكريات فى نفسه ما كان فى الليالى القمرية الجميلة التى قضاها فى أرباض غرناطة الفيحاء قبل سفره بأيام ، وقد يشعر بلذة تلك الليالى ، وفضلها على سابقاتها من ليالى المرح وأيام القصف والسرور ، ذلك أنه كان فى أيامه الأخيرة قد عرف لياء فملأت فراغ قلبه ، وجعلت لحياته طعماً أحلى مذاقاً ، ولنفسه قدراً يضن به على الصغار والضياع

ثم هو الآن يرى نفسه غير ذلك الفارس الذى كان يضرب فى كل سبيل ، ويسير مع كل جماعة ، لا يهمه أن يموت أو يبقى على قيد الحياة . بل صار رجلاً آخر ضنيناً بحياته وسلامته ضنيناً بنفسه عن الابتذال والدخول فيما يدخل فيه الشباب من صنوف اللهو وأسباب المتاع . وأحس أن نفسه قد ارتفعت ، ومشاعره قد سمت فى أيام ، وأصبح وكأنه قد علت به السن وتقدمت به الأعوام . وآنس من نفسه الميل إلى التوقر والاحتشام . كل ذلك لأنه عرف لياء وأحبها فأشعرته بحياته وبشمائل نفسه وسمت به مشاعر الحب إلى ما يليق بشرف الرجال ، ويرتفع عن منازع الشبان . ثم أرجع البصر كرتين إلى نهر غرناطة الحبيب ، وإلى أشجاره التى تحف به وكأنها تقيه وتحميه ، وإلى تلك البساتين وما فيها من الأثمار والأزهار فساورته الأحزان ، وشعر بهم عظيم يثقل نفسه ويدكها دكا . فقد أدرك حال قومه من الضعف والهوان ، وأدرك ما يهدد غرناطة مهد طفولته ومراح شبابه من الأحداث العظام . أليس هو قادماً من عند الأسبان ، وقد عرف نيات القوم وعزمهم على القضاء على مدينته آخر معقل للعرب فى الجزيرة الخضراء . ساورته هذه الأحزان وطافت بنفسه المخاوف على هذه الأرض العزيزة على نفسه . فهى بلاده التى ولد فيها ونشأ حتى بلغ مبلغ الرجال وهى الأرض التى دفن فيها أمه العزيزة التى خلقت للتضحية بنفسها فى سبيل تربيته وتنشئته ، والتى إذا ذكرها ــ وكثيراً ما يفعل ــ يشعر بوخز فى ضميره وألم فى نفسه لا لموتها ولكن لما نالها فى سبيله من المتاعب والآلام ، وكأنه قد أساء إليها ، وأذنب فى حقها ذنباً غير مغفور . ذكر هذا ، وذكر حبيبته لياء فارتفعت غرناطة فى نظره ، وسمت منزلتها فى قلبه وشعر فى نفسه بشجاعة وإقدام وحماسة قلما تكون فى أهل بلاد صائرة إلى الانقراض ، فصرخ فى وسط ما يحف به من مروج هذه البقعة الخضراء :

« محال أن يتغلب علينا الأسبان وفى يدى سيف وفى غرناطة لمياء »

ولكنه عاد فقارن بين حال أعدائهم وهم فى أشد حماستهم ، وفى ذروة اتحادهم واجتماع كلمتهم ، وحال قومه فى ضعفهم وتخاذلهم فبردت حماسته وضعفت همته وانقبض صدره وتغلبت عليه السويداء . ثم مال إلى النزول عن جواده والجلوس وسط الغياض

نزل موسى عن جواده وتركه حراً طليقاً فهو جواد كريم لن يهرب أو يجمح بل سينتظر سيده حتى يمتطيه . وجلس تحت كرمة هناك بجانب قناة ماء ، وما كان جلوسه عن تعب أو لغوب ولكن شوقاً إلى الأنس بالماء والأشجار ، والتنعم بتحديق العين إليها وإنعام النظر فيها ، وإعمال الفكر فى هذا الفردوس الذى يحيط به ويجعل بلاده من جنات الأرض وأبدع أقاليم الدنيا . نظر إلى ما يحيط به وأطال وكأنه لم يشاهده قبل الآن ، وتلبث قليلاً يفكر ، وقبل أن يمتطى جواده سرح النظر فى هذه المشاهد الفاتنة ، وأطال النظر وكأنه يودع أرضاً سيغادرها فى سفرطويل ، أو كأنه عنها مبعد أو ظاعن لن يعود

سار موسى تواً حتى وصل أسوار غرناطة ، وكان الليل قد أرخى سدوله ، واتشحت المدينة وما حولها بثوب الظلام لولا ما كان يتخلله من مصابيح باهتة ، ضعيفة النور كانت تنير المسالك والدروب وتبزغ فى السجفة المظلمة وكأنها سهام خائرة ضعيفة تحارب الظلام فلا تنتصر عليه إلا لماماً ولا تنال منه إلا التافه اليسير . تمثل موسى هذا المشهد فى نفسه ورأى فيه مثيلاً لحال قومه وهم يحاربون أعداءهم فلا ينالون منهم إلا كما ينال هذا الضوء الضعيف من ذلك الظلام الكثيف

حث جواده إلى بيته ليستريح من وعثاء السفر ويبيت ليلته ، ويستعد لمقابلة السلطان فى الصباح ، وكان يعيش فى بيته وحيداً ويقوم على خدمته غلام صقلبي حسن اسمه صبيح شهد زواج أبيه ومولده وعنى بتربيته ، وكان يحفظ له حب الوالد وإخلاص الخادم الأمين ، وكان هذا الغلام مستنيراً كغيره من غلمان العرب فى الأندلس ، فقد كانوا يعتنون بتربية هؤلاء الغلمان وتعليمهم ، وكثيراً ما كانوا يحذقون بعض الفنون والآداب . فلم يكونوا خدماً جهلاء بل كانوا يعرفون أحوال بلادهم وحوادثها ويبدون كثيراً من المعرفة وحسن الإدراك . ولهذا سأل موسى صبيحاً عما فى غرناطة من جديد الأخبار وآراء الناس فى السلطان ، وآراء القوم فى القصبة وهى دار الحكم فى الحمراء ، وكان صبيح يشرح لمولاه تذمر الناس فى غرناطة من أبى عبد الله سلطانها ، وآراء أهل المعرفة فى خطأ السلطان فى تقربه من الأعداء وانحيازه إلى جانب الأسبان ضد إخوانه العرب فى الأقاليم الأندلسية الأخرى وأضاف صبيح :

ولقد سمعت ابن يحيى الفقيه يقول : « كان نجاح الأندلس فى أن يكون والمغرب بلاداً واحدة ، وإقليماً موحداً ، ولكن ملوك الطوائف أبوا إلا الاستقلال ، وانتحال الألقاب ، والتنازع فيما بينهم فتمزق شملهم وتملقت بالعدو آمالهم حتى صار أمر الأندلس إلى الضياع » .

أخذ موسى طريقه إلى حصن الحمراء لمقابلة السلطان والإفضاء إليه بما لقى فى أرض الأسبان . قابل موسى أبا عبد الله فألفاه كئيباً حزينا

منقبض النفس ، فرثى لحاله وخشى أن تتحقق فيه نبوءة المرافين ؛ فقد تنبأوا بنحس نقيبته ، وشؤم طالعه ، وشقاء أيامه . وتنبأوا للمملكة بالسقوط على عهده . وكانت هذه النبوءات مما يروع السلطان ويفزعه وينال من نفسه منالاً عظيماً . ولهذا كان يبدو السلطان محزوناً شاحب اللون ضعيف الثقة بنفسه وبالأيام . وما كاد يرى موسى حتى رحب به وهش له ، وأخذ يسأله عن حال الأسبان ونياتهم، قال موسى :

إن الأسبان لا يقنعهم إلا إجلاء العرب جميعاً عن هذه الجزيرة ، وهم ما عقدوا مع أحد من ملوك العرب صلحاً ، ولا كتبوا له موثقاً إلا ليتفرغوا لغيره من إخوانه وأهل دينه حتى إذا فرغوا منه عادوا فخفروا ذمتهم، ونقضوا عهدهم، وبهذا استولوا على ممالك الأندلس واحدة إثر واحدة ، وكنا لهم عوناً ، وعلى إخواننا حرباً . ولقد شاهدت بنفسي فرساناً من الإنجليز والألمان والفرنسيس قد دخلوا في جيش فرديناند وإيزابلا مساعدة لها على حربنا وطردنا من بلادنا . وهو يتأهب لذلك ويستعد له وقد صح العزم على الاستيلاء على مالقة ثغر مملكتنا ومنفذها إلى البحر حتى لا يأتينا المدد من إخواننا في المغرب أو المشرق .

— الحق أنني يائس من عون المغاربة فهم في ضعف وتخاذل ، قانط من عطف آل عثمان علينا ومساعدتهم لنا ، فقد شاهدوا الأندلس يتساقط كأوراق الشجر فما مدوا له يداً ، وهم في الشرق والغرب سادة مسيطرون ، وغزاة فاتحون

فليكن اعتمادنا على أنفسنا ، وتوكلنا على الله القدير .

وخرج موسى من لدن السلطان وهمه الأول أن يلقى لمياء ليجد بقربها جواً رقيقاً ليناً ينسيه شواغل نفسه وآلامها ، ولينعم بطلعتها الباهرة ، ونظرتها الساحرة ،وبسماتها الخلابة التي تفتح القلب ، وتشرح الصدر ، وتحيي الأمل . وما كاد ينزل من الحصن منطلقاً في مسالك المدينة حتى كانت لمياء تناديه وتحاذيه وتسير إلى جانبه ممتطية جوادها الأشهب قاصدة نزهتها المعتادة في أرباض المدينة الفيحاء .

قضى موسى معها ساعة أمتع فيها السمع والبصر ببهي طلعتها ، وعذب حديثها، ومتع النفس بمشاعرها الكريمة الصادرة عن نفس شريفة ، وقلب رقيق ، وتزود من هذا كله بما يشد أزره ، ويقوى جنانه ، ويعينه على القدر ، وصروف الزمن

دار الفلك دورته السريعة وتمخضت الأيام عن أحوالها العجيبة وحادثاتها الأليمة ، فاستولى الأسبان على مالقة ثغر غرناطة الجميل ، وأضافوا إلى أرضهم مرجه الأخضر وواديه الخصيب . ومن سخرية القدر أن يرسل أبو عبد الله للملك والملكة يهنئهما بهذا الفتح ؛ فأوغر بذلك صدور شعبه ، ولم يسلم من لوم نساء قصره وتعنيفهن ، وحزنت لذلك أمه عائشة الحرة وعدته نذيراً بالسقوط، وأرسلت لمياء الزفرات وأسالت العبرات وحدثها قلبها بقرب وقوع حادث أليم ، وكأنها شعرت بأن مصابها من انتصار الأسبان ونجاح خطتهم سيكون أفدح وأعظم ، وأنها ستنال من الأحزان والآلام أوفر نصيب

وأخيراً اعتزم الأسبان إنزال ضربتهم الأخيرة على غرناطة آخر معاقل العرب وأملهم الأخير ، فحشدوا جيوشهم فيما يحيط بها من الأرباض والرياض وخرج أبو عبد الله من حمرائه بنخبة جيشه يذب

عن حوضه، ويدافع عن روضه، وانتشرت المعارك في البساتين والمروج بظاهر المدينة، وتحولت هذه الرياض الناضرة التي طالما رفرفت عليها أجنحة الحب والسلام، والتي كانت موضع سرور العرب وبهجتهم ومثابة متاعهم ولذتهم، أصبحت ميادين تتصاعد فيها آهات المجروحين وتنهدات المحزونين، وتخضبت أرضها بدماء زكية استشهدت دفاعاً عن شرفها وحياتها. وكان موسى في طليعة قواد الجيش المدافع فبعث في رجاله من روحه ما شد أزرهم، وقوى عزائمهم حتى استهانوا بالموت، وتعجلوا الشهادة

والحق أن مقاومتهم الشديدة كانت دليل ما يحسون من ألم لفراق مروج غرناطة ورياضها الفيحاء التي كانت لهم فردوساً ونعيما، فبذلوا في سبيل وطنهم العزيز أقصى ما عندهم من حول وحيلة ما أقعدهم عن ذلك إدبار سعدهم، وضربات عدوهم

جلس الجند ليلاً يتسامرون ويقصون الأحاديث ترفيها عن أنفسهم، وشحذاً لهممهم قال أحدهم:

إن السلطان قد حارب معنا ببسالة ما كنت أنتظرها منه، وأبلى في دفع العدو بلاء حسناً، وكنت أظن سيفه قد صدأ، ولم يعد يقوى على الطعان

قال آخر: وكيف لا تقوى عزيمته، وتعظم همته، وهو يرى شعبه جميعه حتى نساء قصره يبذلون نفيسهم وأنفسهم في هذا النضال. ولقد ذكرت سيف السلطان وصدأه.

أتعرف ما كتب على نصله؟ ... إنهم نقشوا عليه هذه الأبيات:

جرد حسام الفتك من غمد الردى

واضرب به هام الحواسد والعدى

لم ذا التواني عن متابعة الندى

إن السيوف إذا تملاها الصدى

حلفت مضاربها بألا تقطع

وأنت يا حمدون كيف حال زوجاتك فقد بلغني أنك أكلتهن أربعاً ... إني لأشفق عليك (يا أخي) كيف تطيق هذا العيش المضطرب، وكيف يتسع صدرك للشجار والعراك الذي لا مفر منه في هذه الحال؟

— إن صدري لينشرح وإن نفسي لتطيب لمعارك نسائي، وإنه ليحزنني أن أجد الوفاق ساد زوجاتي والسلام خيم على بيتي!

فأومأ القوم متعجبين من كلامه وصاحوا به:

— أتهزل في وقت الجد؟

— إنني أجد، فاسمعوا الخبر:

كنت يوماً خارج المدينة لبعض شأني فلما عدت وجدت زوجاتي قد انتقين ما حلا لهن من الأقمشة الحريرية المزركشة من تاجر يحملها من بلنسية، وانتظرن حتى أعود فأدفع ثمنها، ولكن الثمن كان باهظاً فرفضت أن أدفع للتاجر شيئاً. وأصر النساء على الاحتفاظ بالأقمشة، وألح التاجر اللعين في الحصول على ثمنها ولكني بقيت في موقفي لا أتزحزح. ولو أردت القبول لما استطعت فما كنت أملك هذا الثمن الفادح! واتفق النساء على مغايظتي ومقاومتي فتصافين وعقدن حلفاً. ولما دخلت البيت في المساء وجدت حجراته مغلقة في وجهي وأبين أن يهيئن لي طعاماً فبت على الطوى. وهكذا وجدت الحال في اليوم التالي حتى اضطررت إلى التماس الفداء فصالحتهن بدفع معظم ما طلبن. ومن ذلك اليوم وأنا أنظر بقلق عظيم إلى كل سلام يعقد بينهن

وأجد فيه ما ينغص عيشي ويذهب براحتي وسكوني

ناضل العرب عن مدينتهم ، ودافعوا دونها حتى انهارت قوتهم ، ونفدت حيلتهم فقفلوا راجعين إلى داخل المدينة وتحصنوا فيها ، ونصبوا مدافعهم على أسوارها

وبقي الأسبان حول المدينة لا يريمون حتى إذا جاء الشتاء بنوا معسكراتهم على هيئة مدينة صغيرة وأقاموا فيها . وفي هذه الأثناء احتمل العرب ويلات الحصار من نضوب المؤونة وقلة الغذاء ، وكان أملهم أن يذهب عنهم العدو إذا جاء الشتاء بأمطاره وثلوجه . فلما رأوه قد بنى معسكراته وأقام مطمئناً خيم عليهم اليأس ، وأظلهم القنوط ، وأظلمت الدنيا في عين أبي عبد الله فعقد مجلساً في الحمراء من نخبة شعبه وسألهم رأيهم في التسليم ! وبيّن حافظ المدينة الحال السيئة التي وصلت إليها من نفاد الأقوات وموت الخيول والحيوانات جوعاً ، وحاجة الناس إلى الخبز .. مما يضطرهم إلى التسليم .

وهنا قام موسى فقال :

إن وسائلنا لم تنفد بعد وإن لدينا وسيلة فعالة طالما كانت سبباً للفتح وطريقاً إلى الخلاص ، ألا وهي الاستماتة . واعلموا أن الموت الأحمر هو أهون ما ستلقون من أعدائكم فموتوا كراماً مدافعين قبل أن تسبى نساؤكم ، ويذبح أطفالكم ، ويعتدي الأسبان على أعراضكم ، ويلوثوا شرفكم . وإني أعرف أعداءنا لا عهد لهم ولا ذمام ولا هم بالكرام عند المقدرة ، فلا تنتظروا وفاءهم ، ولا تطمعوا في كرمهم

ولكن اليأس كان قد حطم نفوس القوم ، فلم وذهب بعزتها ونخوتها يستجيبوا له ، وأرسل الوزير أبو القاسم لعقد شروط الصلح

خرج موسى من مكان الاجتماع واجماً مطرقاً ، كاسف البال فطاف بهو السباع وسار في أبهاء الحمراء الفسيحة ذات العمد الرفيعة ، والزخارف البديعة ، واستعاد في مخيلته ما كان في هذا القصر الباذخ من أبهة الملك ، وعزة السلطان ، وما عقد فيه من مجالس العلم والأدب ، فتحسر على ما فات ، وصعد الزفرات ، وكان الليل قد أرخى سدوله فزاد في انقباض نفسه فلم يطق صبراً على البقاء ، فخرج هائماً على وجهه وقد ملأه الحزن وشمله اليأس لايدري ماذا يصنع بنفسه وقد أصبحت حملاً ثقيلاً ، ووقراً لا يحتمل .

اعتادت عصبة من جنود الاسبان الخروج ليلاً للنزهة على شاطئ الشنيل ، فيهم السكير الذي يترنح والمنتشي بالخمر أو بالنصر يغني أو يرقص ، وقد يأخذ بعضهم بتلابيب بعض على سبيل المداعبة والمزاح ، وبيناهم في مرحهم وعربدتهم إذا بفارس عربي يظهر لهم في دروعه وسلاحه يمتطي جواداً قد غطي مثله بالزرد فنادوه فاستجاب لهم ، ودخل في جملتهم ولكنه طفق يضاربهم ويقاتلهم ، لا يدري أين مهوى سيفه ، وموقع ضرباته ، وبقي يثخنهم جراحاً حتى أصيب وخر عن جواده ، ولكنه استمر يقاتل انتقاماً واشتفاء حتى خارت قواه ، وخشي أن يؤخذ أسيراً فزحف إلى النهر وألقى بنفسه فيه ، ففاضت به أسلحته ودروعه ، واحتضنته اللجة ، وواراه الماء .

ذلك هو موسى بن أبي الغسان

محمد سعيد عباس